الموروث الشعبيّ والسينما

تجارب نجحت في إثراء السينما العالميّة

ناجح حسن *

قدّم صناع أفلام عرب ألوانًا من تجاربهم وابتكاراتهم السينمائيّة الأولى اتكاء على أدبيّات الموروث الحكائيّ والشفهيّ العربيّ القديم، ونجحوا من خلال بصماتهم الخاصّة في تجسيد معان ورؤى جديدة للهويّة والقيم الإنسانيّة النبيلة، وهو ما كرّسهم لاحقًا مبدعين وقامات راسخة في فضاءات السينما العربيّة والعالميّة المغايرة للنموذج السائد.

في أواخر الستينات، نجح المخرج المصري شادي عبد السلام، في تصوير فيلمه الروائي الطويل والوحيد المسمى (المومياء) أو (ليلة أن تحصى السنين) كما في تسميّة نسخته الأجنبيّة، الذي لفت أنظار النقاد وعشّاق الفن السابع في أرجاء المعمورة لقدرة مخرجه الآتي من عوالم الفنّ التشكيلي في تجسيد موروث مصر القديم في مشهديّة بصريّة على نحو بليغ مدهش حاكى فيها تحوّلات الواقع الراهن.

وعلى نحو آخر سارت جملة من الأفلام العربيّة على أسلوبيّة السّرد في قصص وحكايات التراث، كحال الفيلم الموريتاني (هـؤلاء العمال العرب العبيد جيرانكم) لمحمد هندو، والجزائري (مغامرات بطل) لمرزاق علواش، والتونسي (سراب) لعبدالحفيظ بو عصيدة والمغربي (الزفت) للطيب الصديقي ثمّ الاهم والأكثر نضجًا المخرج التونسي ناصر خمير في أفلامه الثلاثة: (الهائمون)، و(طوق الحمامة المفقود)، و(بابا عزيز)، جميعها من بين أهمّ التجارب السينمائيّة في المغرب العربي، وفي السينما العربيّة بعامّة، حيث محاولة كلّ منهم التعبير، وبراعة السيناريو والاخراج والمونتاج بحساسيّة فائقة وفهم عميق للموضوع، والمضمون في استخدام العودة إلى الماضي «الفلاش باك» أو تجسيد بالصورة لما يروى بالصوت، أو حضور رقصة التنورة واكتشاف صوفيّة الحركة في حلقات الذكر أثناء الموالد في القرية، والطواف والتجوال في فضاءات الصحراء، كما تبدو تلك البراعة في لقطات السحب العابرة في السماء، وتدفّق نزول حبات المطر كتعابير عن رؤى إنسانيّة وتعاقب أجيال في أكثر من حقبة زمنية، حيث تستمر دائرة الحياة وإطلاق دعوات التسامح التي يتكامل فيها الديكور والاكسسوارات مع أماكن التصوير المختارة بعناية، وصولًا إلى الذروة في كشف التناقض بين الديكور العصري الأنيق وديكورات بسيطة لبيوتات

* ناقد سينمائي أردني.

سكّان فقراء في أطراف الصحراء والأحياء الشعبيّة بتكامل مع الموسيقى والألحان البليغة والمضامين الإنسانيّة غير التقليديّة، ففي تلك الاشتغالات لا توجد أحداث دراميّة بالمفاهيم السائدة، وإنّما رحلات روحيّة داخل شخصيّات معذّبة وهذا ما عبرت عنه مستويات التعابير الجماليّة بالألوان والظلال والأضواء بقدر يناسب مكونات تلك الأماكن الخفيّة للروح وانعكاساتها على الأرض والخصوصيّة في التعبير الفنيّ والبحث عن هويّة خاصّة تستند إلى جذور على نحو تلقائيّ عفويّ لا تعني العزلة عن الثقافات الأخرى في العالم، وإنّما التمايز في إطار تلاقح طبيعي بين الثقافات في عناقها الفنّان مع تنوع الأشكال والاتجاهات.

وعودة الى تجربة المخرج شادي عبد السلام فإنّ أهميّتها في تاريخ صناعة السينما العربيّة أنّها جاءت في واحدة من اللقيات الابداعيّة حين قرّر مهندس تصميم مناظر الأفلام عبد السلام أن يقدّم فيلمًا مختلفًا عن تجارب أقرانه، وعمل على اختيار موضوع تجارة متوارثة لأهالي منطقة في الجنوب المصري تتعلّق بدفائن ما خلفه المصريون القدماء من آثار ومعادن نفيسة وقدّمها على الشاشة البيضاء في فيلم مفعم بمفردات اللغة السينمائيّة بأسلوبيّة سرديّة تستمدّ جمالياتها من ثنايا جذور مكوّنات الثقافة المصريّة القديمة.

أكثر ما يلفت في تجربة فيلم (المومياء)، ذلك الحضور الآسر المتناغم بين المخرج عبدالسلام وزميله مصمم المناظر المهندس المعماري صلاح مرعي، الذي يعدّ من بين أبرز العاملين في المشهديات الجماليّة داخل موجات تيارات التجديد في السينما المصريّة، فهو على نحو نادر غير مألوف في تجارب أقرانه وضع بصمته الخاصّة في فضاءات الإبداع السينمائي عبر اشتغالاته المميّزة في تشييد ديكورات وتوظيف مفردات الإكسسوارات وتكوينات الظل والنور المستمدّة من البيئة البسيطة التي تسري فيها وقائع الأفلام التسجيليّة والروائيّة في أجواء متباينة يتحرّك فيها أفراد ومجاميع داخل فترات زمنيّة تاريخيّة أو معاصرة .

تلقى مرعي حرفيته السينمائيّة من أستاذه المخرج السينمائي الراحل شادي عبدالسلام الذي عمل إلى جواره بفيلم (المومياء) الذي اعتبره النقاد العرب أحد أبرز علامات كلاسيكيات السينما العربيّة، كما تعاون مع عبدالسلام أيضًا في الفيلم التسجيليّ (جيوش الشمس) مستلهمًا فيهما انعكاسات الحضارة المصريّة

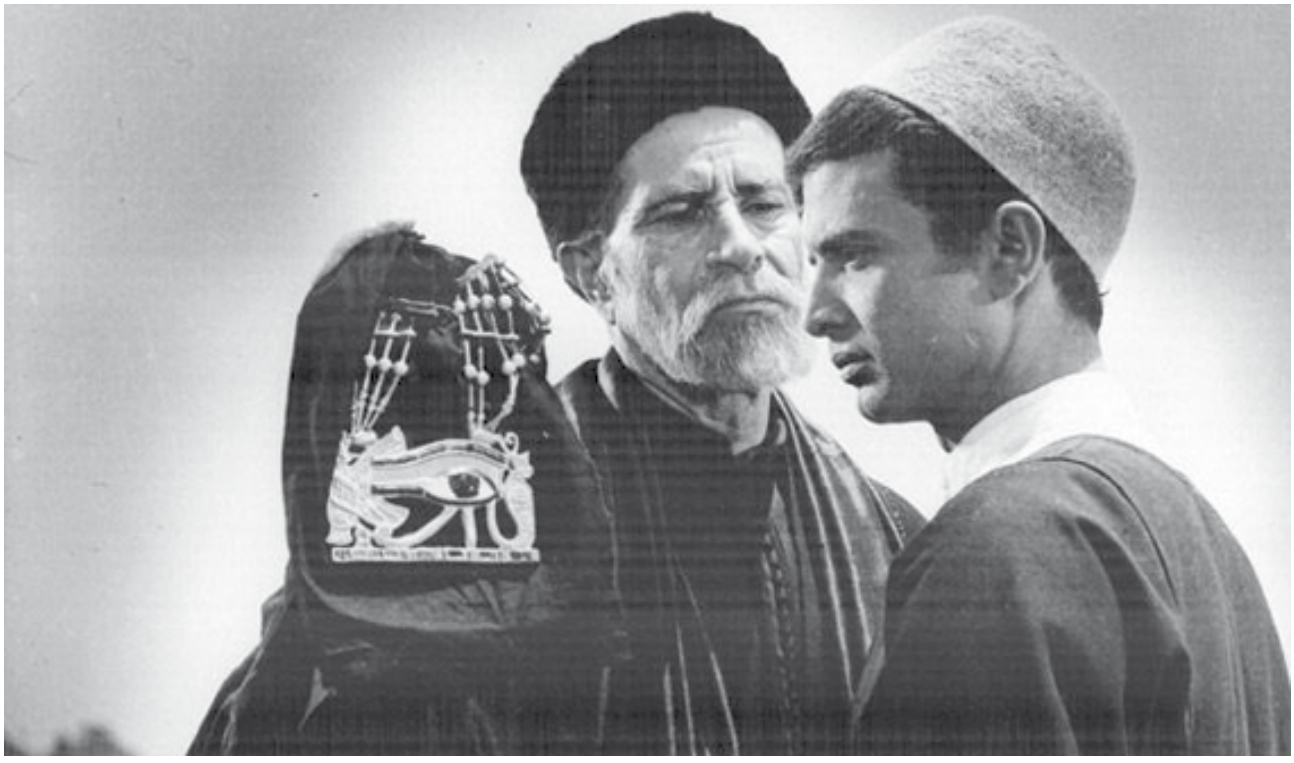

القديمة على الأحداث المصريّة المعاصرة التي تشهد تحولات سياسيّة واجتماعيّة واقتصادية.

شكّل صلاح مرعي وشادي عبدالسلام ثنائيًّا ناجحًا في السينما المصريّة حين عملا معا على تصاميم ورسومات المشروع السينمائي الضخم المعنون (اخناتون)، الذي توارى عقب وفاة شادي عبدالسلام إبّان حقبة الثمانينات من القرن الفائت، وظلّ حلم مرعي أن ينهي الفيلم كمخرج، بيد أنّه تراجع عن ذلك بعد أن واجهته الكثير من عقبات التمويل والدعم المادي.

الراحل صلاح مرعي المولود العام ١٩٤٢ أحد أشهر العاملين في تصميم المناظر السينمائيّه في السينما المصريّة، متسلحًا بخيارات تتلاءم مع ذائقته السمعيّة والبصريّة ووجهات نظره المتعلقة في وظيفة العمل السينمائي دون أيّ تنازل، حيث عمل في بداياته الأولى إلى جوار المخرج ومصمم المناظر شادي عبد السلام كمصمم في أفلام: (رابعة العدوية)، و(أمير الدهاء)، و(السمان والخريف) .. ونال مرعي وعبد السلام الكثير من إطراء النقاد وإعجاب عشّاق السينما طيلة مسيرتهما الإبداعيّة في السينما المصريّة التي بدأت منذ بداية حقبة الستينات من القرن الفائت، وهو ما منحهما جوائز تقديريّة داخل وخارج

المنطقة إضافة إلى مناسبات الاحتفاء والتكريم بجهودهما في الكثير من ملتقيات ومهرجانات السينما الموزّعة بأرجاء المعمورة.

شادي عبدالسلام وصلاح مرعي كلاهما كان يتملّكه شغف حقيقي بالموروث الشعبي القديم، الحياة السينمائيّة العربيّة بالعديد من الرؤى والطاقات الجديدة، عندما عمل كل منهما مدرّسًا لمواد تتعلق بفنون الديكور وتصميم المناظر والجمال المعماري في اكاديميّة الفنون / المعهد العالي للفنون السينمائيّة بالقاهرة، موضحين الفروقات بين سحر الواقع وفضاء الخيال في لجّة من تلك المفردات البسيطة المستمدة من أجواء الفن التلقائي العفوي المنتشر في تفاصيل البيئة المحلية ومكوّناتها.

ظلّ الثنائيّ عبد السلام ومرعي يحرصان على تقديم فرادة الفن الشعبي في لمساتهم السينمائيّة التي تتيح لعين المتلقي فرصة التواصل بين الصورة وباقي عناصر الحقول الإبداعيّة من مشهديات لمناخات البيئة الصحراوية، وجماليات العمارة القديمة ومعزوفات وانغام الآلات الموسيقيّة التراثيّة المصنّعة من مواد خام في البيئة المحليّة القديمة وما يرافقها من غناء ورقص موروث في أجواء احتفاليّة ممتعة مسكونة بزخارف وأشكال من الصور والمطرّزات المرسومة على ملابس وازياء الشخوص وهم يؤدّون أدوارهم في تلك الأفلام القليلة التي حملت اسميهما تحت يافطة الإخراج أو مصممين للمناظر والأزياء.

نجح الثنائي في إيجاد صلات متلازمة بين الفن التشكيلي والسينما في ظرف كانت فيه السينما العربيّة أحوج ما تكون إلى ركيزة لهويّة إبداعيّة طالما تعلقت فيها آمال وطموحات منظري تيار السينما العربيّة الجديدة .

هنا ثبت لحوار أجريته مع مهندس المناظر والمخرج التسجيلي صلاح مرعي قبيل رحيله المفاجئ إثر مرض عضال، كاشفًا فيه عن محطّات في علاقته الفريدة مع المخرج شادي عبدالسلام، وما أثمرت من تعاون إبداعي متواصل رفد السينما العربيّة بخبرة وحرفيّة متمكّنة في تقنيات وجماليات الصورة وما تفيض به من تاثيرات بليغة، ودلالة ذلك إسهاماته الأخيرة مع مجموعة من المخرجين الشباب والمكرّسين وتبدّى بأفلام : (بحب

السيما)، و(عفاريت الاسفلت)، و(جنة الشياطين)، و(الجوع) وسواها كثير.

هل لك ان تحدثنا عن بداية العلاقة بينك وبين المخرج شادي عبد السلام ، وكيف تولد اهتمامك بهدا الحقل من الابداع السينمائي وأعني به تقنيات وحرفيّة تصميم المناظر السينمائيّة؟

كنت قد تخرّجت في معهد السينما بالقاهرة العام ١٩٦٣، في تخصّص هندسه الديكور السينمائي، لكن في الوقت الذي كنت أرغب فيه الحصول على الهندسة المعماريّة، ولم يحصل ذلك بسبب ظروف خاصّة، فقد كنت أهوى الرسم وأمارسه في أوقات الفراغ، ولم يكن هدفي الولوج في عالم السينما، لكنّ مشاهداتي للأفلام الكلاسيكيّة والعالميّة الشهيرة التي كانت تعرض على طلاب معهد السينما جعلت مني مفتونًا بهدا الفن حينها بدات أهيئ نفسي للعمل في الأفلام السينمائيّة .

وعزّز هذه الرغبة لديّ بعض الأساتدة والعاملين في الحقل السينمائي، إبان تلك الفتره مثل صلاح عبد الكريم، وعبد الفتاح الأبياري، وكان من قبيل الصدفه أن شاهدت فيلم (وا إسلاماه) الذي صمم مناظره المخرج الراحل شادي عبدالسلام في بداية الستينات، وكنت مبهورًا بعمله الفنيّ في هّا الفيلم لما تضمّنه من دقّه في اختيارات الملابس والاكسسوارات وقطع الديكور وتكييفها مع أجواء الأمكنه وملامحها وحركة الشخصيات والألوان الموظّفة على خلاف ما هو سائد في الأفلام التاريخيّة المشابهة.

لم يكن شادي عبد السلام في تلك المدّة قد تجاوز الثلاثين عامًا، فيما كنت ما أزال طالبًا لا يجرؤ على اقتحام أو دخول استديوهات الأفلام التي تجري فيها صناعه السينما المصرية، إلى أن اقتربت منه وأخذ بيدي وقد وجّه لي مجموعه من النصائح التى ساعدتني على العمل، وكان منها، مثلًا، أن لا أتعجب بالعمل السينمائي، وعليّ أن أراقب الأفلام بعين ثاقبة تتعقّب كلّ التفاصيل الصغيرة ومطابقة ذلك مع أحداث الفيلم، وإعطاء العين القدرة على التناغم مع مفردات العمل السينمائي وعناصره الأخرى.

لقد كان شادي عبد السلام ينحدر لعائله من الطبقة البرجوازيه التي تعيش في الاسكندريّة، وقسم آخر من العائلة يقطن في

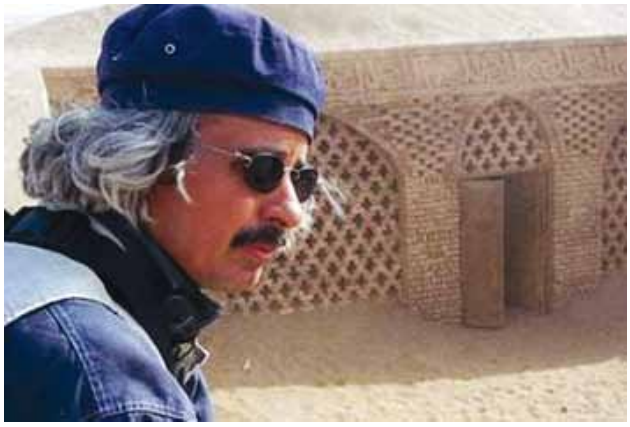

بدأ شادي عبدالسلام يمارس الفنّ التشكيلي منذ الصغر، وكان تأثير المكان عليه واضحًا في أعماله خصوصًا منطقة الصعيد المليئة بالآثار والمخلّفات النفيسة لعصور مغرقة في القدم، وكان يرى في الصعيد وجه مصر الحقيقي، وبعد متابعه دقيقة لأعمال شادي عبد السلام واشتغالاته في تصميم المناظر لأكثر من فيلم طلب مني أن أصبح مساعدًا له، إلى أن أتيحت لي الفرصة للعمل منفردًا في أفلام مخرجين مثل: حلمي حليم وتوفيق صالح في أفلام: (الحياه حلوة)، و(المتمردون)، و(الظلال على الجانب الآخر) لغالب شعث، و(الجوع) لعلي بدر خان وسواها كثير.

لكن يبقى فيلم (المومياء) أيقونة حقيقيّة في مسار السينما المصريّة، حيث شكّل بشهادة نقاد عرب وعالميين ظاهرة غير عاديّة في الإبداع السينمائيّ العربيّ.

برأيك: لماذا لم تتكرّر تجربة فيلم (المومياء) في السينما المصريّة ، مثلما تردّد انّ مشروع فيلم (أخناتون) تراجع وسكن ضجيجه؟

ولدت فكرت (المومياء) بالصدفة، وذلك حين سافر شادي عبد السلام إلى بولندا مع مخرج بولندي كان يصور في مصر وعاد المانيا، ثم تابع دراسته الأولى في كليّة فكتوريا، ووالدته كانت تعمل في حقل التدريس ووالده يعمل في سلك المحاماة له باع من النجاح والشهرة.

معه مستشار في التاريخ للمخرج الايطالي روسليني الذي كان يصوّر في مصر أحد الأفلام التاريخيّة، لكن لظروف سياسيّه غادر المخرج الإيطالي دون أن يكمل عمله وطلب من شادي عبد السلام أن يصوّر المشاهد المتبقيّة من العمل بعد أن أعجب بعمله إلى جواره، وهو ما جعله يرشّحه إلى وزير الثقافه آنداك ثروت عكاشه للقيام بإخراج مجموعة سيناريوهات تعتمد أسلوبيّة سينما المؤلف التى كانت دارجه في عامي ١٩٦٧و١٩٦٨ وكان من بينها سيناريو عكف عليه شادي عبد السلام طويلًا حمل اسم (المومياء) أو (ليلة أن تحصى السنين) وهي التسمية التي كان يرغب فيها كثير من النقاد الأجانب للفيلم.

وبعد محاورات ومناقشات صاخبة، جرى إسناد الفيلم إلى شادي عبدالسلام لإخراج العمل بعد أن تمّت ترجمته الى اللغه العربيّة الفصحى، ووضع له الحوار علاء الديب ووقع الاختيار على الممثل أحمد مرعي مساعدًا له إلى جانب قيامه على الاشتغال بالفيلم كورشة عمل متكامله على صعيد التمثيل والإخراج وإنتاج العمل برمته، فقد كان شادي قد رسم جميع مشاهد الفيلم على الورق ووضع الكاريكاتورات الخاصة له، واختار الملابس وصمّمها كما أراد له ذلك وتقدّم بالسيناريو للحصول على منحة تمويل لكن جرى رفض المشروع بالبدايه نظرًا لغرابة موضوعه! .

هل ثمة تعديل أو تغيير على أسلوبيّة أو رؤية المخرج شادي عبدالسلام في مشروع فيلم (أخناتون)، بحيث تتفق مع الوضع الراهن أو خصوصيّة لغتك الدراميّة والجمالية؟

طبعًا، سأفعل ذلك لكن دون إخلال بتلك المبادئ الجوهريّة التي كانت ضمن تفاهمنا نحن الاثنين حيث سأصرّ على ما أراه يتفق مع قناعاتي حتى لو كان الإقدام عليه مجازفة ومخاطرة ، نعم أنا الآن مختلف عن تلك السنوات لأنّ الأشياء باتت واضحة في ذهني، وأعني الأشياء المهمّة والأساسيّة، ولا شكّ، سوف ترفرف روح شادي عبد السلام على الفيلم إنّها الأمانه اليس كذلك؟

أنت الآن على رأس جمعيّة تحمل اسم (جمعيه أصدقاء شادي عبد السلام) ماذا عن هذه الجمعيّة أو الغاية من وجودها في مصر اليوم؟

قامت جمعيه أصدقاء شادي عبد السلام التي تأسست عقب وفاته عام ١٩٨٦ بمحاوله جمع تراثه السينمائي المكوّن من لوحات واسكتشات رسمها لمناظر وأزياء في أفلام اشتغل عليها سواء من إخراجه أو إخراج غيره إلى جوار الاحتفاظ بمكتبته وأوراقه وصوره المختلفة التي تجمعه مع أقرانه المبدعين العرب والعالميين في أكثر من مناسبة، كما تضمّ نصوص سيناريوهات أفلامه وملخّصات لأفكار حضاريّة وثقافيّة، وهناك مكتبة ضخمة في شتى المعارف الإنسانيّه، ومن ضمنها الحضارة المصريه القديمه، وهناك